

بدع معظم العرب في ضرب الأمثال في مختلف المواقف والأحداث فلا يخلو موقف من حياتنا العامة إلا ونجد مثلا ضرب عليه، ولا تخلو خطبة مشهورة ولا قصيدة سائرة من مثل رائع مؤثر في حياتنا.

فالأمثال أصدق شئ يتحدث عن أخلاق الأمة وتفكيرها وعقليتها ، و تقايلدها وعاداتها ، ويصور المجتمع وحياته وشعوره أتم تصوير فهي مرآة للحياة الاجتماعية والعقلية والسياسية والدينية واللغوية ، وهي أقوى دلالة من الشعر في ذلك لأنه لغة طائفة ممتازة ، أما هي فلغة جميع الطبقات.

ولقيت هذه الأمثال شيوعا لخفتها وعمق ما فيها من حكمة وإصابتها للغرض المنشودة منها، وصدق تمثيلها للحياة العامة ولأخلاق الشعوب ، قال النظام : يجتمع في المثل أربعة لا يجتمع في غيره من الكلام إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبية وجودة الكتابة فهو نهاية البلاغة [١].

والأمثال في الغالب أصلها قصة، أي أن الموقف الأصلي الذي ضرب فيه المثل يكون قصة أدت في النهاية إلى ضرب المثل، والفروق الزمنية التي تمتد لعدة قرون بين ظهور الأمثال ومحاولة شرحها أدت إلى احتفاظ الناس بالمثل لسهولة وخفته وتركوا القصص التي أدت إلى ضربها.

وفي الغالب تغلب روح الأسطورة على الأمثال التي تدور في القصص الجاهلية مثل الأمثال الواردة في قصة الزباء ومنها " لا يطاع لقصير أمر، ولأمر ما جمع قصير أنفه - بيدي لا بيد عمرو " .

وكذلك الأمثال الواردة في قصة ثأر امرئ القيس لأبيه ومنها: " ضيعني صغيرا وحملني ثأره كبيرا - لا صحو اليوم ولا سكر غدا - اليوم خمر وغدا أمر " .

وربما يستطيع المحققون بجهد أن يردوا بعض هذه الأمثال لأصحابها ومبدعيها فمن حكماء

العرب عدد كبير اشتهر بابتكاره وإبداعه الأمثال بما فيها من عمق، وإيجاز، وسلاسة، يقول الجاحظ: " ومن الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء أكثم بن صيفي وربيعة بن حذار وهرم بن قطيعة وعامر بن الظرب وليد بن ربيعة " [٢] وأحكمهم أكثم بن صيفي التميمي وعامر بن الظرب العدواني ، فأما أكثم فكان من المعمرين [٣]، ويقال إنه لحق الإسلام وحاول أن يعلن إسلامه فركب متوجها إلى الرسول صلي الله عليه وسلم ، غير أنه مات في الطريق، وتدور علي لسانه حكم وأمثال كثيرة، وقد ساق السيوطي في المزهرة طائفة منها نقلا عن بن دريد، وهي تجري علي هذا النسق [٤]:

" رب عجلة تهب ريثا. ادرعوا الليل فإن الليل أخفى للويل. المرء يعجز لا محالة. لا جماعة لمن اختلف. لكل امرئ سلطان على أخيه حتى يأخذ السلاح، فإنه كفى بالمشرفية واعظا. أسرع العقوبات عقوبة البغي".

وعامر مثل أكثم يدخل في المعمرين [٥]، ويقال أنه " لما أسن واعتراه النسيان أمر ابنته أن تقرع بالعصا إذا هو فه (فه: حاد وجار وانحرف) عن الحكم وجار عن القصد و ابنته كانت من حكيومات العرب حتى جاوزت في ذلك مقدار صحر بنت لقمان وهند بنت الحس وقال المتلمس في ذلك:

لذي الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا

وما علم الإنسان إلا ليعلما

ولكن أمثال العرب لم تأت علي مثل هذه الدرجة من الرقي والانضباط الأسلوبي، مثل التي جاء بها أكثم وعامر، بل إن كثيرا من الأمثال الجاهلية تخلو من التفنن التصويري، وهذا بطبيعة الأمثال فإنها ترد علي الألسنة عفوا وتأتي علي ألسنة العامة لا محترفي الأدب، فلم يكن من الغريب أن يخرج بعضها علي القواعد الصرفية والنحوية دون أن يعيبتها ذلك مثل أعط القوس باريها (بتسكين الياء في باريها والأصل فتحها)، وأيضا (أجنأؤها أبنأؤها) جمع جان وبان

والقياس الصرفي جناحتها بناقتها لأن فاعلا لا يجمع علي أفعال وهذا يثبت أن المثل لا يتغير بل يجري كما جاء علي الألسنة وأن خالف النحو وقواعد التصريف [٦].

وبعض الأمثال يغلب عليها الغموض ويدل تركيبها على معنى محدد لا تؤدي إليه الكلمات المفردة ومن ذلك قول العرب (بعين ما أرينك) أي أسرع. ولم يكن هذا النوع من الأمثال هو الوحيد بل هناك أمثال صدرت عن شعراء مبدعين وخطباء مرموقين فجاءت راغبة الأسلوب متألفة بما فيها من جماليات الفن والتصوير مثل: أي الرجال المهذب، فهذا المثل جزء من بيت للنابعة يضرب مثلا لاستحالة الكمال البشري والبت:

ولست بمستبق أخا لا تلمه

على شعث أي الرجال المهذب

والأمثال في الأدب الجاهلي يصعب تمييزها عن الإسلامي. لاختلاطهما ببعض عند الرواة والمؤلفين، ولكن ما يشير إليه من حادث أو قصة أو خبر مما يتصل بالجاهلية يساعد على معرفه الجاهلي وتمييزه من الإسلامي مثل: ما يوم حليلة سر (وحليمة بنت ملك غسان ويضرب هذا المثل للأمر المشهور الذي لا يكاد يجهل) وقد يدل علي جاهلية المثل أن يكون مخالفا لتعاليم الإسلام ومبادئه مثل: اليوم خمر وغدا أمر.

والأمثال إما حقيقية أو فرضية فالحقيقة: لها أصل وقائلها معروف غالبا والفرضية ما كانت من تخيل أديب ووضعها على لسان طائر أو حيوان أو جماد أو نبات أو ما شاكل ذلك والفرضية تساعد علي النقد والتهكم والسخرية وخاصة في عصور الاستبداد وهي وسيلة ناجحة للوعظ والتهذيب والفكاهة والتسلية مثل كليلة ودمنة وسلوان المطاع ، وفاكهة الخلفاء [٧].

بعض القصص الحقيقية التي أدت في النهاية إلى ضرب مثل:

- (رجع بخفي حنين) كان حنين إسكافا فساومة أعرابي على خفين فاختلفا، فأراد

حنين أن يعيظ الأعرابي، فأخذ أحد الخفين وطرحه في الطريق، ثم ألقى الآخر في مكان آخر، فلما مر الأعرابي بأحدهما قال ما أشبه بحف حنين ولو كان معه الآخر لأخذه، ثم مشى فوجد الآخر، فترك راحلته وعاد ليأتي بالخف الأول، وكان حنين يكمن له فسرق راحلته ومتاعه. وعاد الأعرابي إلى قومه يقول لهم جئتمكم بخفي حنين. ويضرب هذا المثل لمن خاب مسعاه.

- (الصيف ضيعت اللبن) قاله عمرو بن عمرو بن عدس وكان شيخا كبيرا تزوج بامرأة فضاقت به فطلقها فتزوجت فتى جميلا وأجدبت. فبعثت تطلب من عمرو حلوبة أو لبنا ، فقال ذلك المثل، ويضرب هذا المثل لمن يطلب شيئا فوته على نفسه.

- (على أهلها جنت براقش) وبراقرش كلبة لقوم من العرب اختبأت مع أصحابها من غزاة، فلما عادوا خائبين لم يعثروا عليهم نبحت براقش فاستدلوا بنباحها على مكان أهلها فاستباحوهم.

- (وافق شن طبقة) شَنَّ رجل من العرب خرج لبيحث عن امرأة مثله يتزوجها، فرافقه رجل في الطريق إلى القرية التي يقصدها، ولم يكن يعرفه من قبل. قال شن: أتحملي أم أحملك؟ فقال الرجل: يا جاهل أنا راكب وأنت راكب فكيف تحملي أو أحملك؟ فسكت شن حتى قابلتهما جنازة، فقال شن: أصحاب هذا النعش حي أم ميت؟ فقال الرجل ما رأيت أجهل منك، ترى جنازة وتساءل عن صاحبها أميت أم حي، فسكت شن، ثم أراد مفارقتها، فأبى الرجل وأخذه إلى منزله، وكانت له بنت تسمى طبقة. فسألت أباه عن الضيف فأخبرها بما حدث منه، فقالت يا أبت ما هذا بجاهل؛ إنه أراد بقوله أتحملي أم أحملك: أتحدثني أم أحدثك. وأما قوله في الجنازة فإنه أراد: هل ترك عقبا يحيا به ذكره؟ فخرج الرجل وجلس مع شن وفسر له كلامه، فقال شن: ما هذا بكلامك ، فصارحه بأنه قول ابنته طبقة، فتزوجها شن. ويضرب مثلا للمتوافقين [٨].

• قصص خرافية على ألسنة الحيوانات:

هناك بعض القصص الخرافية على ألسنة الحيوانات صارت أمثالا، وبهذا لم يكن المثل

كإبداع سريع كما سبق أن رأينا وإنما يكون جزءا من شكل إبداعي أوسع والصق بعمل الخيال الخلاق ، ومن هذه القصص:

- قصة الغراب والديك:

" في الكثير من الروايات من أحاديث العرب أن الديك كان نديما للغراب، وأنهما شربا الخمر عند خمار ولم يعطياه شيئا، وذهب الغراب ليأتيه بالثمن حين شرب، ورهن الديك فخاس به فبقي محبوسا " [٩].

وربما لهذا الغدر تشاءمت العرب من الغراب ورأته نذيرا بالفرقة والخراب ربما لأنه تسبب في فقدان الديك حريره، واستثنائه لدي البشر حتى اليوم.

- الاحتكام إلى الضب:

أما القصة التي أبدعها العرب لتبرير عدد كبير من الأمثال فهي قصة احتكام الأرنب والثعلب إلى الضب، وتكاد كل جمل الحوار فيها تكون أمثالا وتميزت بالحيوية، ومرح الموقف، وقصر العبارة، وسلاستها، ودقة وعمق ما فيها من أمثال، إلى جانب تعدد شخوصها وصدق التعبير عن سماتها النفسية "

هذا مما زعمت العرب على ألسن البهائم، قالوا إن الأرنب التقط ثمره فاختلسها الثعلب فأكلها، فانطلقا يتخصمان إلى الضب.

فقال الأرنب: يا أبا الحسل (كنية الضب)

فقال الضب: سميعا دعوت.

فقال أتيناك لنختصم إليك.

قال: عادلا حكمتما.

قالت: فاخرج إلينا

قال: في بيته يؤتي الحكم.

قالت: إني وجدت ثمره.

قال: حلوة فكليها.

قالت: فاختلسها الثعلب.

قال: لنفسه بغى الخير.

قالت: فاطمته.

قال: بحقك أخذت.

قال: فلطمني.

قال: حر انتصف (أي اقتص لنفسه)

قالت: فاقض بيننا.

قال: قد قضيت.

فذهبت أقواله كلها أمثالا [١٠]

وهذه كانت نظرة سريعة للأمثال في الأدب الجاهلي، فرأينا كيف كانت الأمثال في ذلك العصر، وبما تميزت به الأمثال من خفة ودقة وسلاسة وإيجاز وعمق ما فيها من حكمه وصواب رأي، وكيف أبدعوا العرب قبل الإسلام في الأمثال، فحياتنا الآن لا تخلو من أمثالهم وحكمهم.